الفصل السابع

الوزارة والوزراء

لما انتهى عهدُ الإدارة الإقطاعية ، وجاء عهدُ التنظيم البيروقراطى ظهر منصبُ الوزير فى عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس . أما فى عهد بنى أمية فلم تكن الوزارة « مقنّنة القواعد ، ولا مقرّرة القوانين » ؛ وكان ذوو الآراء من مستشارى الملك يقومون مقام الوزراء ؛ وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مُشيراً[1] .

وفى أول القرن الرابع الهجرى انتُقِص اختصاصُ الوزير ؛ فأخذ الخليفةُ منه الضياعَ العباسية التى كانت إقطاعاً يديره الوزراء ، ويَحْصُل منه مائةٌ وسبعون ألف دينار ؛ وأجرى للوزير رزقٌ ثابت قدره خمسة آلاف دينار ، ثم صارت سبعة آلاف فى كل شهر[2] . على أنه كان للوزير مكانٌ ممتازٌ بين سائر رجال الدواوين ؛ فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار فى كل شهر ، وهو مبلغ يساوى مرتب وزير[3] .

وأكبر تغيّر يسترعى النظر فى إدارة الدولة أننا نجد الوزير قد صار مُقدَّماً على جميع القواد ، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب ، ومع أن الدولة قامت فى الأصل

---

(١) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، الطبعة الأوربية ص ١٨٠ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣ . أما فى مصر على عهد الفاطميين فكان يعطى إخوة الوزير أيضاً من مائتى دينار إلى ثلاثمائة — الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٠١ .

على أساس حربى ؛ وكان هذا الوضع الجديد إحياء لنظام التدرُّج فى المناصب إلى أن ينتهى برئيس أعلى ، وهو النظام القوى الذى كان موجوداً فى تاريخ الشرق القديم . على أنه لما عاد القائد مؤنس المظفّر إلى بغداد فى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ، ركب الوزير طَيَّارَهُ للسلام عليه ، وتهنئته بمقدمه ؛ وهذا ما لم تَجْرِ به عادة الوزير ، وما لم يفعل مثلَه وزيرٌ من قبل ؛ حتى إن الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس إلى أن نزل فى طيّاره ، وقبّل يدَه[1] .

وفى أول القرن الرابع كان رسم الوزير فى لباسه هو رسم سائر العمال ؛ فكان يلبس دَرّاعةً وقميصاً ومُبَطَّنة وخُفًّا[2] ؛ وكان السواد هو اللباس الرسمى[3] . أما فى أيام الاحتفالات الرسمية فكان يرتدى ثياب الموكب ، وهى قَبَاء وسيف بمنطقة ، ومع هذا عمامة سوداء ، وهى الجزء الذى لا ينزعه الوزير من لباسه الذى يلبسه عادة[4] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٥٠ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٢١٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٣) انظر ما قاله الأصفهانى شعراً يذم به أبا عبد الله البريدى ، فى تاريخ الفخرى ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ١٦٦ . ومسكويه ج ٦ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦ .

وفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م خرج الوزير للصلاة وعليه شاشية وسيف بحمائل ؛ فعجب الناس من ذلك (عريب ص ١٦٥) . وقد انتهى إلينا البرنامج اليومى لوزير ساعد بن مخلد حوالى عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م : كان يقوم فى آخر الليل ، فلا يزال يصلى إلى طلوع الفجر ، ثم يأذن للناس فيسلمون عليه ، ثم يركب إلى دار الخليفة الموفق ، فيقيم بحضرته أربع ساعات ، ثم ينصرف إلى منزله فينظر فى حوائج الناس وأمور الحاضر والغائب إلى الظهر ، ثم يتغدى وينام ، ثم يجلس بالعشى ، فينظر فى الأعمال السلطانية إلى العشاء الآخرة ، لا يخرج أو يحصل جميع الأمور التى تحمل منها ، وما أنفق ، وما بقى . ثم ينظر فى أمر جيشه وأسبابه ، ويتقدم إلى وكلائه وخاصته بما يحتاج إليه ، ثم يتشاغل بعد ذلك مع ندمائه بالشاغل بحديثه ويأنس به ، ثم ينام (الشابشتى ص ٢١٤ — ٢١٥) .

وكان الخليفة يخلع على الوزير هذه الثياب ، التي هي رسم الوزارة ، عند تقليده ؛ فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ثم يعود إلى داره ، وهم معه . ويصف المؤرخون ذلك ، ولا يهملون أن يذكروا بعض ما كان يقع من الأمور النادرة ، فيُذكر مثلا أن بعض الوزراء أخذه البول ، وهو في طريقه إلى منزله ، فنزل وهو في خِلَع الخليفة إلى دار أحد عمال الدواوين ، فبال عنده وأسرع بزيادة في رزقه[1] . وإذا وصل الوزير إلى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة . وكان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطيباً وطعاماً وأشربة وثلجاً[2] .

وكذلك انتهى إلينا العمل اليومي لأحد الوزراء حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، مع الإشارة إلى أن أخلاقه ، وهو وزير ، كانت مثلها وهو صاحب ديوان ؛ « فكان من رسم الوزير (ابن الفرات) أن يغدو إليه الكتاب ، فيواقفهم على الأعمال ، ويسلّم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به ، ثم يروحون إليه بما يعملونه من أعمالهم ، فيواقفهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروج وفضوه من الأمور ، ويقيمون إلى بعض من الليل ؛ وإذا خفّ العمل ، وقد عُرضت عليه في أثنائه الكتبُ بالنفقات والتسبيبات والحسبانات ، نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه[3] » ؛ وفي مثل

= حوالي منتصف القرن الرابع يبكّر إلى دار الإمارة ، وكان الرسم أن يحضرها بالمشاعل والشموع قبل الصباح (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٧) . وكان الوزير نظام الملك في أواخر القرن الخامس يباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظهر ، ثم يصلي ويجلس للناس ويحضر عنده الفقهاء والمحدثون (طبقات السبكي ج ٣ ص ١٤١) .

(١) غريب ص ١٦٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

هذا المجلس كان الكتاب يجلسون أمام الوزير ، كلٌّ فى مكانه ، ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم[١] .

وكان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ، ويضعها فى جملة سجلاته ، وكانت هذه ، متى عُزل ، تنتقل إلى دار من يخلفه فى الوزارة . ولما تقلد ابن الفرات الوزارة بعد على بن عيسى عام ٣٠٤ هـ — ٩١٦ م كادت هذه السجلات أن تبلغ سقف الخزانة التى كانت فيها[٢] . ويُذكر أن بعض الرقاع الهامة السرية كانت تُحفظ فى سفط خيزران يكتب عليه بخط الوزير : ما يحتفظ به من المهمات : وكان السفط يُختم بختم الوزير[٣] .

وكانت دار الوزير حتى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م هى الدار التى كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشاطئ الشرقى لنهر دجلة ، والتى كانت تسمى دار الخرّم ؛ وكان ذرعها يربو على ثلثمائة ألف ذراع . وقد أُريد تحصيل مال من هذه الدار الرئيسة التى كانت تقع فى حى من أعلى أحياء بغداد ثمناً . تستُّسه . ست من جماعة من الناس بمال عظيم ... وصرف ثمنها فى مال الصلة لبيعة القاهر بالله[٤] » ؛ وأعدت للوزير دار أحد أبناء الخلفاء[٥] .

وكان يقف على باب دار الوزير كثيرٌ من الرجال لحراستها ؛ وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربما أُخذ منهم ثلاثون رجلا فى وقت واحد ، وأُنفذوا فى أمر مهم[٦] .

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٤٢ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٠٨ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٥٩ ، ومسكويه ج ٥ ٢٣٣ .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤١٠ ؛ وفى كتاب الوزراء أن مساحتها ٣٤٦ و ١٧٣ ذراعا .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٩١ .
(٦) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

وكان فى مجلس الوزير غلمان مسلّحون يسيرون بين يدى الوجوه من الناس ، ويخرجون بين يدى الوزير دائما ، يجرّون سيوفهم ، والناس يشاهدونهم[١] .

وكان رسم الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا فى أيام الموكب ، وكان ذلك فى يوم الاثنين والخميس فى أوائل القرن الرابع[٢] ؛ وقد جرى الرسم أن يسابر الوزيرَ إذا ركب إلى دار الخلافة واحدٌ من كتّابه الأربعة الذين يتولون الديوان[٣] . وكانت للوزير فى دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها ، والخواصّ والحواشى بين يديه ، حتى يستدعيه الخليفة . ومنذ عام ٣١٢هـ — ٩٢٤ م صار يجلس فى دار الحاجب متقرّباً إليه ومداريا له ، فكان هذا دليلا على تناقص منزلته[٤] .

وكان الوزير يجلس فى مجلس الخليفة موالياً له بوجهه ، وهى عادة المرءوس بالنسبة إلى رئيسه . وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً فى حضرة الخليفة ، فقد كان الرسم أن تُحْضَر له دواةٌ لطيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ، ويكتب بيده اليمنى ؛ وقد رأى الخليفة المقتدر مرة مشقة ذلك على وزيره على بن عيسى ، وهو يكتب كتاباً هاما بحضرته ، فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ من الكتابة ، وكان على بن عيسى أول وزير أُكرم بهذا ، ثم صار رسماً للوزراء بعده[٥] . وكان للوزير فى الأوقات التى يكون فيها بدار الخلافة نائب

---

(١) نفس المصدر ص ١١٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢١ ، ٣٥٢ .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٦ — ٧ ؛ وكتاب العيون ص ٥٩ ب
(٤) كتاب الوزراء ص ٢٦٨
(٥) كتاب الوزراء ص ٣٤٢ .

يقوم فى الدار لهمّ عساه يعرض[١] ؛ وكان الوزير من بين خدم الخليفة قوم يعوّل عليهم فى مراعاة أخباره[٢] .

وكان الخليفة هو الذى يعيّن وزيره ، وكان فى العادة يقرّ وزير الخليفة السابق فى منصب الوزارة ؛ وفى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً ، وطلب من أحد ثقاته قبولَ الوزارة ، فامتنع لكبر سنّه ، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشح منهم من يراه أهلا للوزارة ، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه ، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً ، فظن الخليفة أن وزيره غشّه ولم يخلص فى النصح ؛ ولما سُئل الخليفة فى ذلك قال لعمرى إنه (القاضى) عالم ثقة ، إلا أننى لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأننى أكون بين أمرين : إما أن تُتَصَوَّر مملكتى بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر فى نفوسهم ، أو أننى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأُنْسَب إلى سوء الاختيار[٣] . على أنه حوالى هذا الوقت تقلد القاضى لمروزى (المتوفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م) ببخارى وزارة الأمير السامانى صاحب خراسان[٤] .

وكان الزمان زمان أرستوقراطية ، حتى أدى الحال إلى نشوء جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب ؛ فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتّاب والأمراء والأشراف ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء

---

(١) المغرى لابن الطقطقى ص ٢٩٢ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٦٧ ، وفيما يتعلق بمصر انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٢٢ .

(٤) Flugel : Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten, S. 296.

العمال[١] . وكانت المناصب أحياناً وراثية ؛ فقد ذكر أن الوزير ابن مقلة خلفه ابنه ، وهو في الثامنة عشرة[٢] ؛ وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد الوزارة بعد أبيه ، وله من العمر إحدى وعشرون سنة[٣] ؛ وقد ولى الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً ، وكذلك تقلد أربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة ؛ وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بني بويه ومؤسس مملكتهم ، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . أما بنو وهب ، وأصلهم من نصارى العراق ، فقد توارث عشرة منهم أرقى مناصب الدولة ؛ وكان أربعة منهم وزراء[٤] . وقد ولى الوزارة واحد من بني وهب عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م ، وكان في شبابه مبذراً مسرفاً ، وقد ضيق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضي بالحجر عليه ، ووُضع تحت الوكالة ؛ ولذلك كان من صدق فراسة مؤنس القائد أنه خشي أن هذا الوزير سيكون سيئ التصرف في أمور الدولة ، كما كان سيئ التصرف في أمواله[٥] . ومما يزيد الأمر خطورة أن أهم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد ، فهو الذي يعمل الدخل والخرج ، ويفرض الضرائب أو يسقطها[٦] ، ويحصّل الأموال من النواحي[٧] .

وفي عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م شغب الغلمان والرجالة على الوزير يطلبون الزيادة ، فمضوا إلى داره وأحرقوا بابه ، وذبحوا في إصطبله دوابّه[٨] . وجميع

---

(١) المنتظم ص ١٦٦ .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٧ .
(٣) الإرشاد للمرزباني ج ٥ ص ٣٠٦ .
(٤) Amedroz, JRAS, 1908 S. 418. ؛ واليتيمة ج ٣ ص ٣٣ .
(٥) Amedroz, JRAS, S. 431. .
(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١ .
(٧) نفس المصدر ص ٧٣ ؛ وكتاب الوزراء ص ٢٣٩
(٨) غريب ٥٨ .

الوزراء الذين استعفوا أو عُزلوا فى القرن الرابع إنما فشلوا أمام الصعوبات المالية .
وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م سمع الوزير أبو الفضل الشلمى وهو فى داره ليلةً جَلَبَة الخيل ، وعلم أن غوغاء العسكر قد اجتمعوا يؤلّبون ويلقون عليه الذنب فى تأخير أرزاقهم ، فدعا بالحلاق ، فحلق له رأسه ، واغتسل بماء ساخن ، ولبس الكفن ، ولم يزل ليلته يصلى ؛ ثم دخل الجند عليه وقتلوه ، وهو ساجد ؛ وكان هذا الوزير فقيهاً مناظراً ومحدّثاً حافظاً ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، ولا يدع صلاة الليل ، وولى الوزارة للسلطان وهو على ذلك ، وكان يسأل الله الشهادة ، حتى وقع له ما وقع[١] .

وكانت سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م أم سنة فى تاريخ الوزراء ؛ ففى هذا الوقت دخل بنو بويه بغداد ، وقام كاتبُ الأمير الذى غلب على تدبير الأمور مقامَ الوزير ، وبطل رسم الوزارة[٢] . وقد تكلم هلال الصابى فى كتابه تاريخ الوزراء عن أهم وزراء القرن الرابع الهجرى ، وهو يقسمهم إلى وزراء الدولة العباسية « وكتّاب » الأيام الديلمية[٣] .

ولذلك يحكى أن جوهراً أيام فتحه لمصر توقّف فى مخاطبة أبى الفضل جعفر ابن الفرات فى كتابه بالوزير ، ولم يخاطبه بذلك إلا بعد مراجعة ، وقال : ما كان وزير خليفة[٤] . أما عند الفاطميين فكان اسم الوزير غير مقبول فى أول الأمر ، وكان قاضى القضاة أجلّ أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلاّ

---

(١) المنتظم ص ١٢٠ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ ؛ والتنبيه للمسعودى ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣ .

(٤) الاتعاظ للمقريزى ص ٧٠ .

فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى ، العزيز بالله[١] ، وهو الوزير ابن كلّس الذى كان يهودياً فأسلم (وتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) . وقد حدثنا القلقشندى فى المصور المتأخرة عن منصب قاضى القضاة فقال : « وإذا كان ثَمَّ وزير لا يخاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير[٢] » . ويقول المقريزى إنه بعد موت ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله أحداً ، وإنما كان ثَمَّ رجلٌ يلى الوساطة والسفارة ، واستقر ذلك فى جماعة كثيرة بقيّة أيام العزيز وسائر أيام الحاكم ؛ ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجرائى فى أيام الظاهر ، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد[٣] . ولم يكن جمهور الناس يفطن لهذا التمييز بين الوزير والوسيط أو السفير ؛ وكذلك محمد يحيى بن سعيد منلا حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م يستعمل فى كلامه لفظ الوزراء من غير تفرقة بين الوزير والسفير أو الوسيط .

ولم تكن مهمة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هى بعينها مهمة وزير الخلافة ؛ وقد لُقّب الوزير الفضل بن سهل ، وزير المأمون ، من بين وزراء الدولة الأولين بلقب ذى الرياستين ؛ وربما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السيف والقلم[٤] . ولكن الصفة الحربية للوزير لم تكن بارزة فى ذلك العهد ، ولم يَلِ الوزارةَ قائدٌ خبير إلا الحسن بن مخلد الذى تقلد وزارة المعتضد ، وخُلع

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ص ١٢٩ ، نقلا عن ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م .

(٢) ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى : AOOW. 1879 S. 185. ، وصبح الأعشى طبعة دار الكتب ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٣٩ .

(٤) عجيب ص ١٦٥ (٢) .

عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م[١] أما عند آل سامان وآل بُوَيْه ، فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة و بقيادة الجيوش فى المعارك[٢] ، بل نجد أديباً مُبرّزاً كالصاحب بن عباد يقود الجيوش فى أيام وزارته[٣] .

ومما يدل على سقوط هيبة الوزراء ، و يدل أيضاً على فظاظة الطبع أن الأمير معز الدولة ببغداد ، وكان أميراً حديداً سريع الغضب ، ضرب وزيره أبا محمد المهلّبى ٦ وهو من المهالبة الذين كانوا حكاماً من قديم على عهد بنى أمية ، مائة وخمسين مقرعة ، ووكّل به فى داره ؛ ولكنه لم يعزله من وزارته ؛ وشاور معزّ الدولة مَن حضره ، وقال : هل يجوز أن أستبقى إلى هذا الرجل ، وقد خفه منى هذا المكروه العظيم ؟ فقال له أحد من استشاره إن مرداويج قد ضرب وزيره أعظم من هذا الضرب ، حتى كان لا يطيق المشى ، ولا يقدر على الجلوس لما حلّ به ، ثم خلع عليه وردّه إلى أمره[٤] . ثم جاء بختيار بن معز الدولة ،

---

(١) أهمل صاحب الفخرى (ص ٢٩٨) ، ذكر ابن خلد الذى تقلد الوزارة بين سليمان بن وهب وإسماعيل بن بلبل (مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩ ، وفهرس تاريخ الطبرى) ، أما ما يقوله صاحب الفخرى من أن ابن بلبل « جمع له السيف والقلم » ، فربما كان ذلك خاصا بابن خلد الذى سقط اسمه ، وذلك لأننا لم نسمع شيئاً عن أعمال ابن بلبل الحربية ، عدا إلى أن الطبرى يصرح (ج ٣ ص ٢١١٠) بأن الموفق « استكتب إسماعيل بن بلبل واقتصر به على الكتابة دون غيرها » .

(٢) فيما يتعلق بالسامانيين انظر مثلا كتاب : Mirchond, hist. Samanid, ed Wilken, S. 72, 84. وفيما يتعلق بالصيمرى والمهلبى وزيرى معز الدولة ، انظر مسكويه ج ٦ ص ٢١٤ ؛ وفيما يتعلق بوزراء ركن الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ ص ٢١١ ، ٣٤٣ وما يليها ، ٤٢١ ؛ وفيما يخص وزراء عضد الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ ص ٤٠١ — ٤٠٢ ، ٤٨٢ ؛ وفيما يتعلق بوزراء بهاء الدولة انظر ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٧ — ١٣٨

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩

(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ وما [illegible] ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٥

وكان غير كفء الملك ، فاستوزر صاحب مطبخه[١] فى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م ، وهو الوزير ابن بَقيَّة الذى كان « يقدِّم الطعام إليه ، ويحمل الفضايل بيده ، ويتشمّ بمناديل الغمر ، ويذوق الألوان عند تقديمه إياها[٢] » ؛ ولكن ابن عمه ، وهو السلطان عضد الدولة ، قبض على أبى الفتح بن العميد وزير أبيه ، وكان ابن العميد قد أسرف فى الاتصال بالعدو ، فسمل عينيه وقطع أنفه[٣] . وطلب من ابن عمه ، عز الدولة بن معز الدولة ، أن يسلّم له ابن بقيَّة لأمور ساءته منه ، فسُلّم إليه مسمولا ؛ فأمر عضد الدولة بأن يُشهر فى العسكر على جمل ، ثم طُرح إلى الفيَلة ، وأُضريت عليه ، فقتلته شر قتلة ؛ وصُلب على شاطئ دجلة[٤] . وقد اجتاز أحد أصدقاء هذا الوزير المنكود ، الذى ارتكب كثيراً من ضروب القسوة[٥] ، فرثاه بقصيدة طويلة جيدة منها :

ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن يضمَّ عُلاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات[٦]

---

(١) جاء فى كتاب معاهد التنصيص مخطوط رقم ٤٤١٦ بمكتبة باريس ص ١٣٣٧ : « وكان الرئيس أبو الفضل والوزير أبو الفرج دخلا الديوان لمقوبة أصحاب الوزير المهلبى عقب موته ، وأمرا أن تلوث ثياب الناس بالنفط إن قربوا الباب ، وكان المهلبى قد فعل مثل هذا » .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، ٣٩٦ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ ، وكان الناس يهزءون من ابن بقية ويقولون : من الفضارة إلى الوزارة — المنتظم ص ١٠٤ ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٥ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ .

(٥) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ ، وأرى أنها السافيات لا السافيات وهو ما جاء أيضاً فى نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادى ص ١٤٣ ؛ وعند ابن تغرى بردى (طبعة كاليفورنيا ص ٢٠) السائحات .

وقد أحدث عضد الدولة فى منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله ؛ أولهما أنه اتخذ وزيرين معاً ؛ والثانى أن أحد هذين الوزيرين ، وهو ابن منصور نصر بن هارون ، كان نصرانيا ؛ وقد أبقى عضدُ الدولة نصراً على بلاد فارس وطنه ، وأخذ الوزير الثانى ، وهو المُطهَّر بن عبد الله معه إلى بغداد . وكان المطهّر هذا معروفاً بشراسة وخبث فى أخلاقه ؛ وكان سيئ الفكر ، فلما وجّهه عضد الدولة إلى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، والتاث عليه الأمر ، خشى انخفاض منزلته عند عضد الدولة وتغيُّره له ، وأشفق من تذرُّع أعدائه بذلك الطعن عليه وإظهار معايبه ، فاختار الموت على ذلك ؛ وأخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعيه جميعاً ، وسال دمه حتى مات[1] . وكان الوزير الذى جاء بعده خليفة لنصر بن هارون الذى كان مقيما بفارس يدبّر أعمالها ، ولم يكن الوزيران على وفاق ، بل كان كل واحد يدبّر المكايد لصاحبه[2] .

ولما جاء بهاء الدولة جرى على رسم أبيه فعيّن ، وهو بشيراز ، وزيرين عام ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م ، وجعل أحدهما مدبّراً لأمور العراق[3] . ولما مات الصاحب ابن عباد سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، بعد أن دبّر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير ، وقعت مساومةٌ شائنة حول هذا المنصب ، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم ، فبذل الوزير الذى كان فى الوزارة ، إذ ذاك سبعة آلاف ألف درهم على إقراره فى الوزارة ، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما فى الوزارة ، وسامح كلا منهما بألفى ألف درهم من جملة ما بذل ، وجمع بينهما

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ — ٥١٤ ؛ ويحيى بن سعيد ص ١٠٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٠ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥١٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٧ .

فى النظر ، ورتّب أمرهما على أن يجلسا فى دَسْتٍ واحد ، ويكون التوقيع لهذا يوماً والعلامة للآخر ؛ وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ، ودبر أحدهما للآخر فقتله[١] .

وأخيراً صار للوزير النصرانى بالمشرق نظير فى مصر ، ففى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م قلّد الخليفة الفاطمى العزيزُ بالله وزارتَه لعيسى بن نسطورس[٢] .

على أن الوزراء لم يبرحوا من الرغبة فى الألقاب التى عظم أمرها حوالى عام ٤٠٠ هـ ، والتى تدل دلالة واضحة على تدهور المجتمع فى ذلك العصر . وفى عام ٤١١ هـ — ١٠٢٠ م أكرم أميرُ بغداد وزيرَه ، فأمر بأن تُضرب الدبادب أمام داره فى أوقات الصلاة ، وهو ما كان ينفرد به السلطان وحده ، وكذلك لقّبه بلقب وزير الوزراء[٣] ، وسرعان ما استعمل الخليفة الحاكم (المتوفى عام ٤١١ هـ — ١٠٢٠ م) هذا اللقب الجديد الذى كان له أثر عظيم ، فلقّب قطبَ الدولة علىّ بن جعفر بن فلاح وزيرَ الوزراء ذا الرياستين الأميرَ المظفر قطب الدولة[٤] . أما الهلال الصابى المؤرخ (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ، فيعتبر أن مخاطبة الملوك المدبّرين لوزرائهم بأمثال هذا اللقب هى من انقلاب الرسوم وتغيُّر حقائق الأشياء[٥] . وفى سنة ٤١٦ هـ — ١٠٢٥ م خلع جلال الدولة ببغداد على وزيره ولقّبه عَلَمَ الدين سَنَد الدولة ، أمين الملّة ، شرف الملك ؛ فكان هذا الوزير أول من لقّب بالألقاب الكثيرة[٦] . وهذه الحالة تشبه ما عليه الشرق

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧١ وما يليها .
(٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ا ، وكان عيسى بن نسطورس يُخاطَب بسيدنا الأجلّ .
(٣) المنتظم ص ١٦٨ ا — ب (؟) .
(٤) يحيى بن سعيد ص ١٢٨ ا .
(٥) كتاب الوزراء ص ٥٠ ا .

اليوم ، وإذا قارنّا بين الوزير فى ذلك العصر بما صار يحمله من ألقاب وبين سلفه ممن لم تكن لهم ألقاب لوجدنا أنه بالنسبة لهم لم يكن له شىء من القوة والسلطان .

الوزراء فى القرن الرابع الهجرى

سنبدأ بالكلام عن على بن الفرات ، وهو الذى خلف أخاه العباس فى منصب الوزارة عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م . وكان علىّ حين تقلّد الوزارة فى الخامسة والخمسين من العمر . وكان وزيراً واسع الثروة حتى يقول الصولى : « وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة ، وهو يملك من العيْن والورِق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات »[1] . وقد ظهر فى منصبه بمظهر الفخامة التامة ، فكان يُجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار فى الشهر إلى خمسة دراهم ، وكان يطلق للشعراء فى كل سنة من سنى وزارته عشرين ألف درهم رَسْمًا لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقاً ، وعند مديحهم إياه ، وكان فيمن يُدعى إلى طعامه كلّ يوم تسعةُ كُتّاب ، هم خاصة كُتّابه ، وكان منهم أربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين ، وكان له فى داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يُحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ؛ ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدّم إلى الحجّاب المقيمين بالدار ويُفرّق منه الرجّالة والبوابين وأصاغر الكتّاب وغلمان أصحاب الدواوين ، وكان يُقدّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جديا ، ومائتا قطعة دجاجا سمانا ، وفراريج مصدّرة ، ومائة قطعة درّاجا ، ومائتا قطعة فراخا ؛ وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهاراً ،

---

(١) غريب ص ٢٧ .

وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا ، ودار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يحمل فيها الماء المبرّد ، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرجّالة والفرسان والأعوان والخُزّان ، ومن يجرى مجراهم من الأتباع والغلمان ؛ وكان بالدار مزمّلات فيها الماء الشديد البرد . ويرسم لخزانة الشراب خدمٌ نظاف عليهم الثياب الديبقية السرية ، وفى يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جُلّاب ومخوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا عرضوا ذلك عليه[1] . وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخيّاطين[2] . وكان فى جانب الدار أدراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلّمين ، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك[3] ؛ ولما خُلع على هـذا الوزير خلَع الوزارة زاد فى ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً فى كل مَنّ ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لها ، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة منوية ودرج منصورى . وقد سُقى فى داره فى ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً[4] ، وجرى رسمه مدة وزارته أن يُعطى كلُّ من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمعة[5] وفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م اتخذ ابن الفرات مارستانا ببغداد ، وكان ينفق عليه مائتى دينار من ماله فى كل شهر[6] وكان هذا الوزير يحمل بين جنبيه

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٤٠ ، ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٤٢ ؛ وقد أساء مترجم كتاب محمد المنسوب للثعالبى فهم بعض هذه النصوص ، انظر ZDMG VI. 50 ، وانظر أيضاً كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م ص ١٦٩ [المترجم] .

(٦) المنتظم ص ٢٣ ب

نفساً كبيرة ، فلقد قُدِّمت إليه جرائد بأسماء من يحاديه ، ويدبّر فى زوال أمره ، فلم يفتح الصناديق التى كانت فيها ، وأحرقها وقال إن كان حاضراً : والله لو فتحتُها وقرأتُ ما فيها لفسدت نيّاتُ الناس كلّهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ومع فعلنا ما فعلناه طويت الأمور بهذا ، فهدأت القلوب واطمأنت النفوس[1] . ولما اشتد أمره عند المقتدر وتألب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقبض على نفسه وكتّابه وعُماله ما يحمله للخليفة ، فيرضى عنه ، فقال : « فأى شىء أقبح بى ، مع علوّ همتى ، وكثرة نعمتى ، من أن أنشئ أصحاباً وعمالا ، يلون بولايتى ، ويُنكبون بنكبتى ، ويتصرّفون بتصرّفى ، ويتعطلون بعطلتى ، ثم أزيل نعمهم وأحوالهم بيدى وفى أيامى : القتل والله أهون من ذلك »[2] .

وحُكى أن رجلا اتصلت عُطْلَتُه ، وانقطعت مادته ؛ فحمل نفسه على أن زوّر كتاباً من أبى الحسن بن الفرات إلى عامل مصر بالوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب وارتبط الرجلَ عنده على وعد ، وأنفذ الكتاب إلى ابن الفرات ؛ ورأى ابن الفرات أن يستشير كُتّابه ، فأشار بعضهم بالتأديب أو بقطع إبهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه ، فقال ابن الفرات : « ما أبعدكم من الخيرية ! رجل توسّل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر فى تأميل الصلاح بجاهنا ، وامتداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن أحواله عند أجلكم محضراً تكذيبُ ظنه وتخييبُ سعيه ! والله لا كان هذا أبداً » ؛ ثم أخذ القلم ووقع بخطه على ظهر الكتاب المزوّر بوصى به ، ويقول إن الكتاب كتابه[3] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١١٩ ، وحكى مثل هذا عن المأمون (المستطرف ج ٣ ص ١٠٧) .

(٢) كتاب الوزراء ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٣ ؛ والمنتظم ص ١٢٨ ج ٦ .

ولما نُكب الوزير علي بن عيسى وتذلّل لابن الفرات حتى قبّل يده وقام لابنه المحسّن ، وكان ابن عشر سنين ، قال ابن الفرات بعد انصراف عليّ : رأيتم تطامُنَ عليّ بن عيسى للنكبة واستعانتَه عليها بالاستعطاف والتذلّل ، وهذه طريقة لا أحسنها ، لأن كبدي في المحن كأكباد الإبل ، لاجرم أنها تزداد وتتضاعف[١] . وقد أكسبته الخدمة الطويلة خبرة بشؤون الوزارة وإدارة الدولة ؛ وقد استطاع أن يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المنشعبة سيطرة كاملة ، حتى استحق من وجوه كثيرة أن يقول عليّ بن عيسى لما كُذِب عليه بموت ابن الفرات : اليوم ماتت الكتابة[٢] ومن حِكَمه السياسية القاسية قوله : أصل أمور السلطان مَخْرَقَةٌ ، فإذا نمّت واستحكمت صارت سياسة ، وقوله : تَمْشِيَةُ أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب ؛ وكان يقول : إذا كانت لك حاجة إلى الوزير . فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب سرّه فافعل ولا تبلغ إليه فيها[٣] .

على أنه لم يتحرّج ولم يتهيّب من مدّ يده إلى خزانة الدولة ؛ بل أضاف هو وأخوه كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهما ، وعظم دَخْلُهما ؛ وقد وجد أعداؤه من الطعن فيه أنه لما صودر وُجد في ودائعه ما هو مختوم بختم أبي خراسان خازن المعتضد على بيت مال القلعة ، ووُجد عنده مالٌ أكثره محمول من بيت مال الخاصة[٤] . قال أبو علي بن مقلة كاتب ابن الفرات ، وقد جرى ذكر هذا الوزير : يا قوم ! هل سمعتم بمن سرق في عشر خطوات سبعمائة ألف دينار ؟ قلنا : كيف

---

(١) الوزراء ص ٦ ، ٣٠٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٨٣ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٦٤ ، ١١٩ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٣٩ .

ذلك ؟ قال كنت بين يدى ابن الفرات فى وزارته الأولى ، ونحن فى دار الخلافة نفرّق أرزاق الجيش ، ونقسم وجوه مال البيعة ونرتّب إطلاقه ، وذلك عقيب فتنة ابن المعتز ؛ فلما فرغ مما أراده خرج وركب طيّارته ، وبلغ نهر المعلّى ، فقال : إنا لله إنا لله ! قفوا ! فوقف الملّاحون ؛ فقال لى : وقّع إلى أبى خراسان صاحب بيت المال بحمل سبعمائة ألف دينار تُضاف إلى مال البيعة ، وتُفرّق على الرجال ، فقلت فى نفسى : أليس قد وجّهنا وجوه المال كله ؟ ما هذه الزيادة ووقّعت بما رسمه ، وعلّم فيه بخطه ، ودفعه إلى غلام ، وقال : لا تبرح من بيت المال حتى تحمل هذا المال الساعة إلى دارى ، ثم سار ؛ (قال) فحُمل المال بأسره ، وسُلّم إلى خازنه ، فعلمت أنه أنسى أن يأخذ شيئاً لنفسه فى الوسط ، ثم ذكر أنه باب لا يتفق مثلُه سريعاً ، ويحتمل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير ، فاستدرك من رأيه ما استدرك[1] » .

وكان الوزير على بن عيسى زميل ابن الفرات من قبل ومنافسه من بعد مخالفه مخالفة تامة . وينتمى على بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكُتّاب[2] ؛ قال معاصره الصولى : ولا أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى زهده وتعبّده ؛ فقد كان يصوم نهاره ويقوم ليله[3] . وكان يخرج نصف ما يرتفع له فى السنة فى أبواب البر وسبل الخير[4] ؛ وكان متهاونا قليل المبالاة حتى إنه لم يستطع أن يغير طبعه فى كلامه عند مخاطبة الخليفة ، وذلك على عكس ابن الفرات ،

---

(١) نفس المصدر ص ١١٧ .

(٢) الوزراء ص ٧٦ ب .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣

مما أحفظ الخليفة عليه[١] . وقد طلب الأخفش سعوى (المتوفى عام ٣١٥ هـ) من على بن عيسى أن يجرى عليه رزقا ، ووسط فى ذلك أبا على بن مقلة ، فاشتهره على بن عيسى اشتهاراً شديداً فى مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه « وقد اسودّت الدنيا فى عينيه » ؛ ووقف الأخفش على الصورة فاغتم ، وقيل إنه قبض على قلبه فمات[٢] . وكان على بن عيسى متمسكا بالوقار ، ولا يُرَى قط متبذّلا ، ولا كان يفارق الخفّ فى أكثر أوقاته إلا إذا أوى إلى فراشه أو قعد مع حُرَمه[٣] . وكان يشتغل بالنظر فى أمور الدولة ليله ونهاره[٤] . وكان يجعل وراءه كل باب مسوَّرة ، ويُسْبِل عليها ستراً طويلا يغطّيها ، فإذا جلس بعد عمله الكثير فى أخريات النهار مجلساً حافلا ألصق بها ظهره لئلا يُشاهَد مستنداً تمسّكا بالوقار[٥] . وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من القلة والاستكانة بعد عزله من الوزارة ، وكان لتديُّنه ووزعه يلوم ابن الفرات على تقليده ديوان جيش المسلمين لرجل نصرانى[٦] : وقد تحرّج من تقليد أبنائه الأعمالَ مدة وزارته[٧] ، وحاول أن يتدارك العجز فى بيت المال بالاقتصاد فى الأمور الصغيرة ، فأنقص أرزاق العمال والجند ، وأسقط ما كان يُفرَّق على القواد والفرسان فى كل عيد ؛ وكان ذلك من شاة إلى عدة بعران ؛ وحاول أن يمنع من امتداد الأيدى إلى الأموال العامة . ولكن ابن الفرات شنّع عليه بقوله :

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٤) صلة ص ١٣٠ .

(٥) الوزراء ص ٩٥ ، ولكن يقال إنه كان له شيبون من النصارى Barhebr. Chron. Eccles. III 241 .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٦٦ (؟) .

يا أبا الحسن علي بن عيسى ! شغلت نفسك بأخلاق الملكة والنظر فى علوفة البط والخطيطة من أرزاق الناس ، وما يجرى هذا المجرى من الصغار المستهجنات ؛ لعمارة بيدر واحد أصلح للسلطان وأعود عليه من توفيرك ما تقربت به إليه وكان يوفر من الأشياء الصغيرة ويحكى أنه قضى مرة ساعة يناظر فى علوفة البط حتى إن المتولى لكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه فى الشهر ، ووجد أنه يتقاضى عن الساعة عشرين ديناراً ، فقال : « قد نظر الوزير فى أكثر من ساعة لتوفير ما لا يبلغ ما استحقه من الرزق » .

ولكن على بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه فى الأمور الصغيرة لم يتصدق الخليفة حيما راسله ليقرّ بما عنده من أموال ؛ فكتب يذكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، هذا وقد وُجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار . ولما ضيّقوا عليه استجاب أخيراً إلى دفع ثلاثمائة ألف دينار ، يُعجَّل منها الثلث فى ثلاثين يوما ، ويؤدى الباقى على رسم المصادرات[1] . وكان على بن عيسى يوبخ أبا عبد الله البريدى لأنه حلف للسلطان أن استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو فى الحقيقة ثلاثون ألفاً ، فقال البريدى إنه اقتدى بعلى ابن عيسى حيث حلف لابن الفرات أن ارتفاع ضيعته عشرون ألفاً ، فوُجد بعد ذلك خمسين ألفاً ، فكأنه ألقم علىّ بن عيسى حجراً[2] . فلم يكن هذا الوزير نقى اليد تماما ، وقد فرّط فى تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجّلا إلى مال مؤجّل لا يدرى ما يجرى فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف[3] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٩٠ .

وقد ولى أبو على محمد بن عبيد الله الخاقانى الوزارة مدة سنتين ، وذلك بين وزارة ابن الفرات وعلى بن عيسى . وكان الخاقانى هذا ابن وزير ، وهو ينتمى إلى أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة . ويذكرنا ما سجله التاريخ من أسره بكثير من الديمقراطيين الذين يفتحون صدورهم لعامة : كان الخاقانى متخلقا عاميا ، إلا أنه كان خبيثاً داهيا[١] ؛ فقد كان يوقع بكل سؤال ، ويَعِدُ بإنفاذ كل محال ، وكان من عادته إذا سُئل حاجة أن يدق صدره بيده ، ويقول : نعم وكرامة ، حتى لُقِّبَ « دقّ صدره » ؛ وبلغ من لين العريكة وقلة البصيرة وعدم تصور عواقب الأمور ، وعدم المنع من شيء يخاطب فيه أن انبسطت العامة عليه فضلا عن الخاصة[٢] . وقد صُوِّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مضحكة قيلت عن غيره ، وهى تدل على قلة الأذى أحيانا وعلى سوء السيرة أحيانا أخرى ؛ وكانت طريقته كثرة التولية والعزل ، فكان يعين فى المنصب الواحد رجالا كثيرين واحداً بعد واحد ، ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية ، بل ليأخذ من كل منهم رشوة[٣] . ويحكى أنه اجتمع فى خان واحد بمدينة حلوان (بالعراق) سبعةُ أنفس ، وقد قلّد الخاقانى كلٌّ واحد منهم ماء الكوفة فى عشرين يوما ؛ واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلّدهم منصباً آخر ، وهناك تشاكوا ما بذلوه عن تقليدهم[٤] . ويُذكر أن الخاقانى قلّد عمالةَ بادوريا فى أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا[٥] .

وإذن فقد تقلّد منصبَ الوزارة فى أوائل القرن الرابع وزراء ثلاثة يختلف

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

(٣) ذكر صاحب الفخرى (ص ٣١٢) ما قاله الشعراء الساخرون هجاءً للخاقانى

(٤) الفخرى ص ٣١٣ — ٣١٤ ، وكتاب الوزراء ص ٢٦٣ . ويذكر صاحب الفخرى أن التولية كانت للكوفة ، وهى الناحية التى كانت تسمى عندالفرس ماه الكوفة

(٥) غريب ص ٣٩ .

أحدهم عن صاحبه كل الاختلاف ، ولا يجمع بينهم إلا خصلة واحدة هى الخيانة التى بها انتهبوا خزانة الدولة .

أما حامد بن العباس[١] الذى ولى الوزارة عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨م فقد كان على خلاف غيره من الوزراء ؛ لأنه لم يتخرّج فى الدواوين ، بل بدأ حياته بالاشتغال فى أمور التجارة والمال وضمان الخراج ، حتى عظم شأنه ؛ ولما ولى الوزارة وكان فى الثمانين من عمره ، واحتفظ بما كان بيده من ضمانات ؛ ولم يكن يعرف شيئاً من أمور الكتابة ، ولم يكن نصيبه من الوزارة إلا اللقب والخِلْعة ، وكان المدبّر للأمور على بن عيسى الذى كان وزيرا من قبل ، وقد قال ابن بسّام الشاعر مستهزئاً بحامد بن العباس[٢] :

يا ابن الفرات تعـــزّه قد صـــار أمرك آيه

لمّا عُزلت حصلتـــا عـــلى وزير بدايه

وقد قيل فيهما : «هذا وزير بلاد سواد ؛ وذا سواد بلا وزير» . ولما سأل حامدُ بن العباس الخليفة المقتدر إطلاقَ على بن عيسى والإذنَ له فى استخلافه فى الدواوين لقلة خبرة حامد بالوزارة ، قال المقتدر : ما أحسب أن على بن عيسى يجيب إلى ذلك ، ويرضى بأن يكون تابعاً بعد أن كان رئيسا ، فقال حامد بحضرة الناس : إنما مثل الكاتب كمثل الخياط ، يخيط ثوبا بعشر دراهم ، ويخيط ثوبا فيمنه ألف دينار ؛ فضحك الناس منه واستنقصوه[٣] ولما ناظر حامدُ بن العباس

---

(١) محمد القارى ترجمه مختصرة له فى المقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء ص ١٨ حاشية رقم ١ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٣) كتاب العيون ص ٩٤ ا ، ب .

ابنَ الفرات بعد عزله أفحش له فى القول فقال له ابن الفرات : ليس ما أنت فيه يَدَرًا نفسه ، وأسكرا تشتمه وتحلق لحيته وتضربه ، وعاملا تذبح دابته وتعلق رأسها فى عنقه ، فإنما هذه الدار دار خليفة[1] . وقد أظهر من الأبهة ما يظهره ذوو المجد الحديث لا المؤثل ؛ فكان له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح ، لكل واحد منهم مماليك ؛ وكان الملاحون فى حرّاقته من الخصيان البيض ، وهم أغلى الخصيان ثمناً[2] . وقد جرى بينه وبين مفلح الأسود كلامٌ مرة ، فقال له حامد : « لقد عجبت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا وأهبهم لفلانى »[3] . وكان ظاهر المروءة كثير العطاء ؛ فيُحكى أن أحد خدم المقتدر شكا إليه فناء شعيره ، فكتب له بمائة كرّ من الشعير ؛ وكان ينفق على الطعام كل يوم مائتى دينار ، ولا يسمح بأن يخرج من الدار أحد من الجلّة والحاشية والعامة وغيرهم ، إذا حضر الطعام ، إلا أن يأكل ، حتى غلمان الناس ، وربما نُصب فى داره فى اليوم الواحد أربعون مائدة . وقد أهدى إلى المقتدر بستانا أنفق على بنائه مائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه ركب يوما إلى بستان له ، فرأى فى طريقه داراً محترقة وشيخاً يبكى ، وحوله صبيان ونساء على مثل حاله ؛ فلما عرف أن داره قد احترقت وأنه افتقر تألّم قلبه ، وتنغّصت عليه النزهة بسبب ذلك ، ولم تسمح له نفسه بالتوجه إلى بستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدار كما كانت ، وتوضع فيها الفراش وكل ما كان فيها ، حتى إذا عاد العشية من النزهة وجد الشيخ وعياله كما كانوا ، وقد بُنيت الدارُ على أحسن مما كانت ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ٩٢ ، كتاب العيون ص ١٩٥ .

(٢) المنتظم ص ١٢٥ ، ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٢ .

وأنفق فى ذلك مال كثير[١] ولكن حامد بن العباس لم يتورّع من خزن الحبوب فى العراق وخوزستان وأصفهان ، بعد أن كان قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للخليفة ، حتى ارتفعت الأسعار ، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامة وثورتهم عليه حتى فُسخ الضمان[٢] .

أما الوزير ابن مقلة (ولد فى بغداد عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م) فقد نشأ من بيت متواضع[٣] ؛ وتقلّد الوزارة ، وهو فى الستين من العمر ، وكان ممن اشتغل بين يدى ابن الفرات وارتفع بسببه[٤] . وقد تعلم منه الشىء الكثير ، ومن ذلك أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المال فى سنين قليلة ؛ ووزر لثلاثة خلفاء فى أوائل القرن الرابع ، وبنى لنفسه داراً عظيمة فى بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام . وكان يعتقد بالنجوم ، فجمع المنجمين ، حتى اختاروا له وقت البناية ، فوضع أساس الدار بين المغرب والعشاء ، وكان له بستان كبير أنشأه بلا نخل ، وعمل له شبكة ابريسم ، وكانت تفرخ فيه الطيور التى لا تفرخ إلا فى الشجر كالقمرى والدباسى والهزار والببّغ والبلابل والطواويس ؛ وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنعام والإبل وغير الوحش . وكان يحاول أن يجرب التزاوج بين الحيوان ، و بُشّر

---

(١) المنتظم ص ١٩ ج ؛ ٢٥ ج ، ب ؛ ٢٦ ج .

(٢) نفس المصدر ص ١٨ ج .

(٣) كان بين جعظة الشاعر وبين ابن مقلة صداقة قبل الوزارة ، فلما استوزر استأذن عليه جعظةُ ، فلم يُؤذن له ، فقال :

قل للوزير أدام الله دولته أذكر مسامحتى والخبز خشكار
إذ ليس بالباب مردود لموكبه ولا مطر ولا فى الشط ملاح

(المنتظم ص ٦٤ ب)

(٤) كتاب الحيوان ص ٢٣ ج ، المنتظم ص ٢٠ ج

مرة بأن طائراً بحريا وقع على طائر برّيّ ، فأزوجا وباضا وأفقسا ، فأعطى من بشّر بذلك مائة دينار[١] .

وكان ابن مقلة صاحب مؤامرات ، جريئاً فى ذلك ؛ ويتهمه المؤرخون بالإيقاع بين القاهر (٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م) وجنده ، وبأنه شحذ نياتهم ، وجمع كلمتهم على قصد القاهر والفتك به[٢] . وقد سعى عند بجكم وعند الخليفة الراضى على ابن رائق الذى كان فى ذلك الحين قابضاً على زمام الأمور ببغداد ؛ ذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مقلة[٣] . ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلّمه لابن رائق ، وذلك على الرغم من أنه استشار المنجمين فى اختيار وقت لقاء الخليفة[٤] . واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى[٥] ؛ ومن نكد الدنيا ، كما يقول الثعالبى ، أن مثل هذه اليد النفيسة تُقطع ؛ لأن خط ابن مقلة كان من أحسن خطوط الدنيا ، وهو أكبر مؤسس للكتابة الجديدة التى ظلت مستعملة طول القرن الرابع الهجرى[٦] . على أن ابن مقلة بدلاً من أن يكتب بيده اليسرى كان يشدّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب[٧] ؛ غير أنه ، رغم ما حلّ به ، واصل سعاياته ودسائسه غير راجع عن ذلك ، فقطع لسانه بعد ثلاث سنين ، وبقى فى الحبس مدة طويلة ، حتى مات .

---

(١) المنتظم ص ٢٦٤ — ب .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ .

(٣) كتاب العيون ص ١٥٧ ب .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٦٢ ب ، وقد وصف الطبيب ثابت بن سنان حال الذراع بعد قطعها ، انظر مسكويه ج ٥ ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(٦) كان فى خزانة كتب عضد الدولة بشيراز مصحف بخط أبى على بن مقلة فى ثلاثين جزءاً مجلداً — الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٦ ، وانظر ثمار القلوب للثعالبى ص ١٦٧ .

(٧) كتاب العيون ص ١٦٢ ب — ١٦٣ ا .

وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل فى آخر أيامه ، بعد القوة وحياة الأبهة ؛ ويُقال إنه كان لا يجد من يخدمه ، حتى كان يستقى الماء بنفسه من البئر ، فيجذب حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه[١] .

ومن وزراء القرن الرابع أبو العباس الخصيبى ؛ وكان يواصل شربَ النبيذ بالليل والنومَ بالنهار فى أيام وزارته كلها ؛ وكان ينتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل ، فيترك فضَّ الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتَها والتوقيع عليها وإخراجَها ، إلى الدواوين . وكانت تُعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة ، فتُعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأها ، وربما لم يقرأها ، فيقرؤها أبو الفرج إسرائيل النصرانى ، ويوقِّع فيها بحسب ما يرى[٢] . وكان الخصيبى مشغولا بالشراب واللعب ، ولا يحسن شيئاً غير المضادرات[٣] .

وقد تولى الوزارة حوالى منتصف القرن الرابع أبو محمد الحسن المهلبى ، فكان وزيراً ذا كفاية عظيمة ؛ وأصله من آل المهلّب بن أبى صفرة[٤] ، فهو إذن من سادة الإسلام الأولين ، وكان وطن المهالبة بالبصرة ، حيث اتخذوا فى القرن الثالث الهجرى دوراً عظيمة عُرفت بحسنها[٥] . وكان أبو محمد المهلّبى ، قبل الوزارة ، فى شدة عظيمة ؛ وسافر مرة ، وهو على تلك الحالة ، فلقى فى سفره عنتاً شديداً ، واشتهى اللحم فلم يقدر عليه ، وأنشد فى ذلك الوقت شعراً تبرّم فيه بالحياة وتمنى

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٣ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ . وكان اسم إسرائيل من أسماء النصارى التى اختصوا بها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٨ .

أن يجد أحداً يبيع له الموت فيشتريه ؛ وسمعه رفيق له ، فاشترى له لحماً بدرهم ، وأطعمه ، وتفارقا . ثم تنقلت الأحوال بالمهلبي وتولى الوزارة ، وضاق الحال برفيقه الذى اشترى له اللحم ، وبلغه أنه تقلد الوزارة ، فقصده ، وأنشده شعراً ذكره فيه بعهده به ؛ فهزت المهلبيَّ أريحيةُ الكرم ، وأمر له بسبعمائة درهم ، وقلده عملا يرتفق منه[١] . وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م ، وهو العام التاريخى المشهور ، استولى المهلبى على بغداد إلى أن وردها معزُّ الدولة[٢] . ونجد المهلبى قبل ذلك أى فى عام ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م وكيلا لأبى زكريا السوسى ، وكان السوسى هذا من كبار رجال المال[٣] ؛ ثم استخلفه الوزير أبو جعفر الصيمرى على الأمور بمدينة السلام ، وأنابه بعد ذلك بحضرة معز الدولة ، فحسُن موقعه عند معز الدولة ومال إليه وقرّبه ؛ فاشتد ذلك على الصيمرى ، فتطلّب للمهلبى الذنوب ، وأطلق فيه لسانه بالوقيعة[٤] . ولما مات الوزير فى سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م استكتبه معز الدولة وآثره على جميع الكتّاب[٥] ؛ ولم يُخاطب بالوزارة إلا فى سنة ٣٤٥ هـ[٦] . وكان الأصفهانى صاحب الأغانى منقطعاً إلى الوزير المهلبى ، كثيرَ المدح له ؛ وهو يصفه بأن له نظما كالدرّ ونثراً رقيقاً وقدرةً على التعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل[٧] ؛ ولكن المهلبى كان إلى جانب هذا قائداً محنّكا ، فمن ذلك أنه هزم صاحب عمان حينما غزا البصرة وغنم منه وأسر[٨] . ولقد مات

---

(١) ثمرة الأوراق للحنوى ، على هامش محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٢ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢١ .
(٣) نفس المصدر ج ٥ ص ٥٧٥ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٨٠ .
(٥) مسكويه ج ٦ ص ١٦٥
(٦) نفس المصدر ص ٢١٤ .
(٧) اليتيمة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٨) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م وهو خارج لفتح عمان ، وذلك بعد أن لبث فى الوزارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدير أمور أكبر ديوان فى الدولة[١] ؛ وكان مخلصاً فى المحافظة على النظام ، فردّ رسوم الضرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم البريديين[٢] ؛ وكان يؤدّب العابثين ، فمن ذلك أنه قبض على حاجب قاضى القضاة وضربه ضربَ التلف ، وكان يبلغه أن هذا الرجل عاهر « يتعرض لحُرَم الناس ممن لهنّ خصومة أو حاجة عند قاضى القضاة »[٣] ؛ ولكن المهلبى كان يفعل فى بعض الأحيان ما يثير سخطنا ، ومن أمثلة ذلك أنه تعقّب أحد العمال ، وأخذ فى التنقير عن أمواله وفى إرهاب غلمانه حتى ظفر بالمال الكثير ، واستعمل الدهاء والمكر والبطش فى بلوغ ذلك ، وإن كان ليس فى هذا ما يشين عند خلفاء ذلك العهد وأمرائه ، حتى إن مسكويه يذكر صنيع المهلبى معجباً بذكائه وصدق تخمينه ورضاء معز الدولة عنه[٤] ؛ بل نجد أن المهلبى نفسه لم يسلم من مثل هذا المصير ؛ فلما مات قبض معز الدولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوما واحداً ، حتى الملاّحين والسُكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وصادرهم جميعا ، وفعل بهم ما لا يُفعل إلا بعدوّ مكاشف ، حتى استفظع الناس ذلك واستقبحوه[٥] ؛ وكان المهلبى يجد من سيده أميراً قاسيا ، فكان يلحقه منه أذى كثير ، حتى لقد ضربه بالمقارع مرة مائة وخمسين مقرعة[٦] . ولم يكن على وفاق

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٩ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٥٨ .

(٦) انظر ما تقدم عند الكلام عن معز الدولة فى الفصل الخاص بالأمراء .

مع سبكتكين القائد التركي الذي كان أكبر ثقات معز الدولة[١]؛ ولكن المهلبي كان له على معز الدولة سلطان في الأمور الهامة ، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يزل المهلبي به حتى صرفه عن رأيه ، فابتنى قصره العظيم ببغداد وبقي بها[٢] . وكان ندماء المهلبي أعيانَ الفضل وسادة ذوي العقل[٣] ، من أهل الأدب والعلوم ؛ وكانوا يجتمعون على كثير من الشراب والطرب . وقد تكلم مسكويه في حديث له قصير عن صفات المهلبي وسخائه وآثاره ، وإن لم يكن مسكويه من المتحمسين للمهلبي[٤] ؛ وقد حدث مرة أنه صاغ دواة وَرَسْماً ، وحلاّهما حلية ثقيلة ، وكان بعض الكتّاب في ديوانه يتذاكرون سرّ حسن الدواة ، وذلك على مسمع منه وغفلة منهم ، فقال أحدهم : ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأنتفع بثمنها ، فقال له آخر : وأي شيء يعمل الوزير ؟ فأجابه : يدخل في حِرِ أمّه ؛ فلم يكن من المهلبي إلا أن أهدى الدواة ، ومعها عطايا أخرى للرجل الذي تمناها[٥] . ويحدثنا القاضي أبو علي التنوخي ، معترفاً بفضل الوزير المهلبي ؛ فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلده عملا ، وكان أبو علي يلازم الوزير ، فدخل عليه يوما قاضي القضاة أبو السايب ؛ وكان أبو السايب يبغض أبا علي لزيادة عداوة كانت لأبيه ؛ وأراد الوزير أن يلقي في نفس القاضي رهبة أبي علي ، حتى يرهبه ويكرمه ؛ وعلم من خلق القاضي أنه لا يجيء إلا بالرهبة ، فأخذ الوزير يكلم الفتى ، ويوهم قاضي القضاة أنه يسارّه في أمر من أمور الدولة ، وأفهم أبا علي غرضه من هذه

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٣) رسالة في الصداقة للتوحيدي ، طبعة القسطنطينية ص ٣٣ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٦٦ .

(٥) المنتظم ص ٩١ ب .

المسارّة ، وأنها شديدة على نفس القاضي ، وقال له أن يمضي إليه في الغد ليرى ما يعامله به ، فلما جاء إلى القاضي كاد يحمله على رأسه[١] .

وكان أشهر الوزراء أواخر القرن الرابع ابن عباد الملقب بالصاحب[٢] الذي ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ — ٩٩٥ م ، وزير بني بويه بالريّ . وكان في بدء أمره معلماً في قرية ، ثم ترقت به الحال ، بعد أن كان من صغار الكتاب ، إلى أن بلغ منصب الوزير المدبّر لأمور الملك ؛ وكان الأمير الشاب الذي استوزره والذي أنشأ له ابن عباد مملكته لا يخالفه في أمر من الأمور ، بل حَكّمه في كل شيء ، وكان يجلّه بكل ضروب الإجلال[٣] ؛ ولما مات الصاحب عُمل له ما يعمل للملوك ، فحضر جنازته مخدومهُ فخر الدولة وجميع أعيان المملكة ، وقد غيّروا لباسهم ؛ فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة ، وقبّلوا الأرض لنعشه ، ومشى فخر الدولة أمامه ، وقعد للعزاء أياما[٤] .

وكان ابن عبّاد من الأدباء ومن المعنيّين بأهل الأدب ؛ وقد شبّهه مادحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللّسن ، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشام و بغداد أمثال الرضي والصابي وابن الحجاج وابن سكّرة وابن نباته[٥] ، وكان فهرس كتبه عشرة مجلدات ، وملك

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٢) كان ابن عبّاد أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، ثم سمي بهذا الاسم عميد الجيوش حوالي عام ٤٠٠ هـ (ديوان الشريف الرضي طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ص ٣٢١) ، وبعد ذلك لقب به « كل من ولي الوزارة حتى خرافيش زماننا ، حتة الاسم وأخذة الكوس » (ابن خلكان بردي طبعة كليفورنيا ص ٥٦) .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٣ والصفحات التالية .

(٤) ابن خلكان بردي طبعة كليفورنيا ص ٥٢ .

(٥) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٢ .

من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل وذلك رغم أنه لم يكن خبيراً بالعلوم الإلهية ، وأنه كان شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد[١] . وتُذكر له رسالة حسنة فى الطب[٢] ؛ ولم يكن الصاحب يقدر على عطايا الأدباء عن سعة ، كما يحكى عمن تقدمه من إجزال العطاء لهم ، فقد « كان لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة ، وما يبلغ إلى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بديع »[٣] .

وكان الصاحب يعجبه الخزّ خاصة وكان يكثر من إهدائه ؛ فنظر أبو القاسم الزعفرانى الشاعر يوما إلى من فى دار الصاحب من الخدم والحاشية ، فوجد عليهم الخزوز الفاخرة الملونة ، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الخزّ قال فيها :

وحاشية الدار يمشون فى ضروب من الخزّ إلا أنا

« فقال الصاحب . قرأت فى أخبار معن بن زائدة أن رجلا قال له : احملنى أيها الأمير ! فأمر له بناقة وفرس و بغلة وحمار وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه ؛ وقد أمرنا لك من الخزّ بجُبّة وقميص ودَرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ، ولو علمنا لباساً آخر يُتّخذ من الخز لأعطيناكه »[٤] . غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أغضب التوحيدى ، فأثار على نفسه الذمّ من أقذع الألسنة فى عصره ؛ على أنه قد وصلت إلينا رسالة من أبى حيان كتبها للصاحب ومدحه بها فى أول اتصاله

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ ، ٣١٥ .

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٤٢ وما يليها .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٠٤ ، ج ٦ ص ٢٧٦ . طلب الشاعر المغربى منه خمسمائة دينار فقال له : أنقصنا واجعلها دراهم .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٣ — ٣٤ ، والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٢٠ .

به[1] ، ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيان رسالته فى ذمّ الصاحب ، وكان فيها من الإقذاع فى الثلب ما جعلها تعتبر جالبة للنحس والشؤم على من يقتنيها ؛ ومع هذا فإنها من أروع آيات النثر العربى ، ومن أحسن ما كُتب فى تصوير شخصيات الناس فى القرن الرابع الهجرى .

فمن ذلك أن أبا حيان يقول : وكان أبو الفضل بن العميد إذا أراد أن يقول : أحسب أن عينيه رُكِّبتا من زئبق ، وعنقه عمل بلوْلَب ؛ وصَدَقَ ، فإنه كان ظريف التَثَنِّى والتلوّى ، شديد التفكك والتفتل ، كثير التعوّج والتموّج ، فى شكل المرأة الموسة والفاجرة الماجنة[2] . ومن أبى حيان أنه وصف الصاحب بأنه لا يرجع إلى التأله والرحمة والرقة والرأفة والرحمة ؛ والناس كلهم يجمعون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، ضعيف الثواب ... مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، قريب الطيرة ، حسود حقود ، وحسده وَقْفٌ على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ... وقد قتل خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوةً وبغياً ، وتجبُّرا وزهوا ؛ ومع هذا يخدعه الصبى ويخلبه الغبى ، لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال له : « مولاى يتقدم بأن أعارَ شيئا من كلامه ورسائله منظومة ومنثورة ، فما جُبْتُ الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد من كلامه ، وأفصح به وأتعلم به البلاغة ؛ لسكانها رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه آيات فرقان ، واحتجاجه من أثنائها برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد ، وأبرز جميع قدرته فى شخص ! » ؛ فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهم ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى

---

[1] راجع ترجمته فى الإرشاد ج ٢ ص ٢٩٨ والصفحات التالية ، والمؤلف قد فات عنه أن هذه الرسالة من أبى العميد لابن عباد (المترجم) .

[2] راجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورّاق والورق ، و يسهل الإذن عليه ، والوصول إليه والتمكن من مجلسه . . . ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعراً ، و يدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ، و يقول له : قد عملتك هذه القصيدة . امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين ؛ فيفعل ذلك أبو عيسى ، وهو بغدادى محكك ، قد شاخ على الخدائع وتمحّك ؛ و ينشد فيقول الصاحب عند سماعه شعره فى نفسه ووَصْفه بلسانه ، ومدحه من تحبيره :

أعِدْ يا أبا عيسى : فإنك والله مُجيد ، زِدْ يا أبا عيسى ! قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك وتنقّحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول ، حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالس تخرّج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيدهم الفطنة ، وتحول السكودن عتيقاً . والمحمّر جواداً ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطيّة هنيئة ، ويغايظ به الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عَروضا . . . والذى غلطه فى نفسه ، وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يُجَبَّهْ قط بتَخْطئة ، ولا قوبل بتسوئة ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، ولله درّه ما رأينا مثله ! من ابن عبد كان مضافا إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغوانى ؟ . من أشجع السلمى ، إذا سلك طريقهم ؟ قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو ابن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الإسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ؛ وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطاطاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الحذق ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن كعب فى

الفردوس [؟] ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى الجار فى البذل ، وعلى ابن ثوابة فى التقفية . . . ؛ فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يلوى ويبتسم ، ويطير فرحا به وينقسم ، ويقول : ولا كذى ، ثمرة السبق لهم ، وعسرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ؛ وهو فى ذلك يتشاجى ويتحايك ، ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ، ويرد كالآخذ ، ويأخذ كالمتنع ، ويغضب فى عرض الرضى ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتفانك ويتمايل ، ويحاكى الموسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات ؛ وهو ، مع هذا ، يظن أنه خافٍ على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ؛ وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، دلالا ونزقا وعجبا ، واندراء على الناس ، وازدراء الصغار والكبار ، وجبهاً المصادر والوارد ، وفى الجملة آفاته كثيرة وذنوبه جمّة ، ولكن الغنى رب غفور :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرُّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه النديُّ وتزدريه ... خليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى ، وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
فإنْ ذنبه ، والذنب جمّ ... ولكن الغنى رب غفور

قال : فكيف تتم له الأمور مع هذه الصفات ؟ قلت : والله لو أن مجوزاً بلهاء أو أمَةً ورهاء أقيمت مقامه لكانت الأمور ، على هذا السياق ؛ لأنه قد أمن أن يقال : لِمَ فعلتَ ؟ ولِمَ لمْ تفعل ؟ وهذا باب لا يتفق لأحد ممن خدم الملوك إلا لجدّ سعيد . ولقد نصح صاحبه المروزىُّ فى أموال تاوية وأمور من المظالم عارية ؛ فقذف بالرقعة إليه حتى عرف ما فيها ، ثم قتل الرافع حَتْفاً ، هذا

وهو يدين بالوعيد ؛ وقال لى الثقة من أصحابه : ربما شرع فى أمر يحكم فيه بالخطأ ، فيقلبه جدُّه صواباً ، حتى كأنه عن وحى ؛ وأسرارُ الله فى خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيَّة ؛ ولو جرت الأمور على موضع الرأى وقضية العقل لكان معلماً فى مصطبة على شارع أو فى دار لتان ؛ فإنه يخرج الإنسان بتفقيهه وتشادقه ، واستحقاره واستكباره ، وإعادته وإبدائه ؛ وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا ولا تنفِّرهم عن المعلمين ؛ ويكون سرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة ... قال (أبو حيان) : وكان ابن عباد يقول للإنسان إذا قدم عليه من أهل العلم : يا أخى تكلَّمْ واستأنس وانبسط ولا تُرَعْ ... ولا يروعك هذا الحشم والخدم ... فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية ... فقُل ما شئت ... فلست تجد عندنا إلا الإنصاف ؛ حتى إذا استوفى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحيل ، وسار الرجل معه فى حدوده على مذهب الثقة ، فاجّه وضايقه ، ووضع يده على النكتة الفاصلة والأمر القاطع ، تنمَّر له ، وتنمَّر عليه ، ثم قال يا غلام : خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس ، وضعْه فيه بعد أن تصُبَّ على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة سوط وعصا ، فإنه معاند ضدّ ... ؛ وليس الخبر كالعيان ؛ من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلا رقيعاً ... وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح[1] ... كان ابن عباد لا يسكت عما لا يعرف ؛ قال لكاتبه فى بعض الأيام بعد أن وبخه وأطال : « بادر إلى عمل حساب بتفصيل باب يبين فيه أمر دارى وما دخل عليه أمر دخلى وخرجى ؛ فتفرَّد الكاتب أياماً وحرّر الحساب على قاعدته وأصله والرسم الذى هو معروف بين أهله ، وحمله إليه ؛ فأخذه من

(١) رسالة فى الصداقة لأبى حيان ص ٣٣ طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ هـ .

يده وأمرّ عينه فيه من غير تثبت أو فحص أو مسألة ، فحذف به إليه ، وقال : أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أني رينك في داري ، وشُغلت بتخريجك ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبي ورعاية الآباء لأطعمتك هذا الطومار ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدّبت بك كلّ كاتب وحاسب ، وجعلتك مُثلة لكل شاهد ومثب ، أمثل يُموّه عليه ويطمع فيما لديه ، وأنا خُلقت للحسابة والكتابة ؟ والله ما أنام ليلة إلا وأحصل في نفسي ارتفاعَ العراق ، ودَخْل الآفاق ؛ أغرّك مني أني أجررت رسنك ، وأخفيت قبيحك ، وأبديت حسنك ؟ غيّر هذا الذي رفعت ، وأعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزد في صلاتك وصدقك ، ولا تعوّل على فحتك وصلابة حدقتك » ؛ يقول الكاتب : « فوالله ما هالني كلامُه ولا أحاك في هذيانُه ؛ لأني كنت أعلم جهله في الحسابة ونقصه في هذا الباب ؛ فذهبت وأفسدت ، وأخرت وقدمت ، وكابرت وتصدت ؛ ثم رددته إليه ، فنظر فيه ، وضحك في وجهي ؛ وقال : أحسنت ، بارك الله عليك ! هكذا أردت .. وهذا بعينه طلبت ، لو تغافلتُ عنك في أول الأمر لما تيقظتَ في الثاني ؛ فهذا كلّه ترى ، أعجبُ منه كيف شئت »[1] .

أما ابن العميد (المتوفى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) فقد صوّره لنا ابنُ مسكويه في تاريخه ، وكان خازنا لدار كتبه مدة طويلة ، وبقي في نفسه لابن العميد صورة وأثر قويان ، حتى إن التوحيدي يهزأ بابن مسكويه ويعيبه بأنه يفسد قوله بكثرة ذكره : قال المهلبي ، قال ابن العميد ، فعل ابن العميد[2] . وقد

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ — ٢٨١ ، ٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٢) رسالة في الصداقة للتوحيدي طبعة القسطنطينية ص ٣٢ .

ابتدأ مسكويه بمدح بطله بالقدرة على الحفظ ؛ وكان لهذه المزية فى ذلك العصر قيمة أكبر مما لها اليوم ؛ يقول المؤرخ : « وحدثنى غير مرة أنه كان فى حداثته يحاظر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت فى يوم واحد ؛ وكان رحمه الله أثقل وزنا وأكبر قدراً من أن يتزيّد ... وكذلك شعره الذى جد فيه وهزل ، فإنه فى أعلى درجات الشعر ... فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحدٌ فى زمانه أن يدّعيها بحضرته ، إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلّم دون المذاكرة . ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التى يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة وجرّ الثقيل ومعرفة مركز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون ، وحيل فى الحروب مثل ذلك ، واتخاذ أسلحة عجيبة يسهم تنفذ أمداً بعيداً وتؤثر آثاراً عظيمة ، ومرايا محرقة على مسافة بعيدة جدا ، وأطْف كفٍّ لم يُسمع بمثله ومعرفة بدقائق علم التصاوير . وقد رأيته يتناول التفاحة أو ما يجرى مجراها ؛ فيحبث بها ساعة ، ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره ، لو تصد لها غيره بالآلات المعدة وفى الأيام الكثيرة ما تأتّى له مثلُها ؛ فأما اضطلاعه بأمور الملك فقد دلت عليه رسائله . ولا سيما رسالته التى يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن تُتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن أحوالها ؛ « فإن هذه رسالة تُتعلّم منها صناعةُ الوزارة ... ولما حصل بفارس علّم عضدَ الدولة وجوهَ التدابير السديدة وصناعةَ الملك التى هى « صناعة الصناعات » ، وثقّفه ذلك تثقيفاً ، فصادف متعلما أتمّا ؛ حتى قال عضد الدولة

مراراً : إن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا ؛ وكان لا يذكره في حياته إلا الأستاذ الرئيس .

وكان ابن العميد يقود الجيوش ويحضر المعارك ، وكان أسداً في الشجاعة لا يُصطلى بناره ، ولا يُدخل في غباره ؛ وكان يركب العماريات ، ولا يستقل ظهور الدوابّ لإفراط علة النقرس وغيرها عليه . وكان قليل الكلام نزر الحديث إلا إذا سُئل ووجد من يفهم عنه ؛ وكان لحسن عشرته وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أديبٌ أو عالم متفرّدٌ بفنّ سكت له ، وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسانَ من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورده عليه ؛ حتى إذا طاوله ، وأتت الشهور والسنون على محاضرته ، واتفق له أن يسأله عن شيء تدفّق حينئذ بحرُه ، وجاس خاطرُه ، وبُهت من كان عند نفسه أنه بارع في ذلك الفن ، « وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم ! » ؛ وكان مركزه في غاية الصعوبة ، وهو بين أمير لم تكن له بين جنده هيبة إلا بالمداراة والمسامحة في أشياء كثيرة وإطلاق الأيدي بالعبث ، ولم يكن يستجيب إلى عمارة البلاد « خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل الوقت » ، وبين جند الديلم الذين كانوا يطالبون بالمحالات ، ويثقلون مؤونتهم على الرعية ، ويتواعدون بالميل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ ورُبما خرجوا إلى الصحراء بقدر ما يدبّرون الرأي في وجه الحيلة وترتيب ما يريدون ؛ ولكن ابن العميد استطاع على الرغم من هذا أن يعيد النظام حتى استقام الأمر ، وقامت الهيبةُ في صدور الجند والرعية . ويحكي ابن مسكويه أنه كان يكفي ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترتعد الأعضاء وتضطرب ، وتسترخي المفاصل ؛ وأنه شاهد ذلك في مواقف كثيرة . وقد استطاع أن يعرف طبائع الديلم وما فيهم من حسد وجشع ، وأنه

لا يملكهم أحد إلا بترك الزينة ، وبذل مالا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ، وبترك التكبر عليهم ، وبالظهور فى مرتبة أوسطهم حالا . ولما رأى ابن العميد أن ابنه يحب أن يسير فى خواص الديلم ، ويستميل قلوبهم بالخِلَع والهدايا ، ويدعوهم إلى اللعب والصيد ، ويستضيفهم فى الصحراء ، نهاه عن ذلك ووعظه ألاّ يسير معهم هذه السيرة ، ولكن النصحَ لم ينفع ؛ فتجرّع ابن العميد غيظه ، وزاد ذلك فى مرضه ، حتى مات فى همذان ، وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آلَ العميد ، ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبى ، يعنى ابنه ؛ وكان يقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جُرَع الغيظ التى تجرّعتها منه[1] .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣١٥ — ٣١٧ ، ٣٥١ — ٣٥٨